ليلةٌ في المستشفى

اضطررتُ للمبيت في المستشفى في ليلةٍ دامية، فرأيتُ مشاهدَ هدَّت قُوَّتي، وأُصبتُ بالإرهاق النفسي، لا تذهبُ من ذاكرتي صورةُ بلاط المستشفى وهو مليءٌ بالجثث والجرحى، فلا تستطيع وضع قدمك إلا بحذرٍ شديد، ولا تغيبُ من ذاكرتي صور الأطفال المصابين وأنا أعبر ممر المستشفى وأحدهم يمسك بقدمي ويقول: ماء ماء، لقد رأيتُ فوق المئة شهيد، ومثلهم مصابون وأكثر، والله إنَّ أصوات المصابين وآهاتِ الجرحى كانت تدقُّ في أعماق أعماق قلبي.

«مات أبوكي يمَّا»، لا يزال صدى هذه العبارة يتردد في أذني، امرأةٌ قُتل زوجها وقُصف بيتها، وتم إخراجها من تحت الأنقاض هي وابنتها، باتتْ من الساعة الحادية عشر ليلاً حتى الفجر وهي تبكي وتقول: «مات أبوكي يمَّا، مات سندنا».

لقد رأيتُ الدماء في كل مكان، لقد كان قرار بتر القدم أو اليد هو الخيار الوحيد للحفاظ على حياة المصاب في ظل نقص المعدات الطبية ونقص كل شيء، صديقنا أُصيب بشظيةٍ في قدمه، ولعدم توفر مقدرة ومعدات صحية بُترتْ قدمه -صبَّره الله-، رأيتُ المصابين وهم ملقون على الأرض بدون مرافقين، ولا يوجد مُتَّسَعٌ لهم، ولا حتى أَسِرَّة بيضاء.

لقد كانتْ رائحة الجثث في كلِّ مكان، رأيتُ الدُّود وهو يأكل الجثث، رأيتُ جثثاً صارت عظماً وهجمتْ القطط والكلاب على العظام!!، لقد كرَّرتُ دعاء النبي ﷺ: (الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي عَافَانِي مِمَّا ابْتَلاَكَ بِهِ، وَفَضَّلَنِي عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقَ تَفْضِيلاً)[1] عشرات المرات.

إنَّ أهل العافية غرقى في العافية والله، والإنسان ظلومٌ كفار، قال الله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: 34].

(1) سنن الترمذي، حديث رقم 3431.